13

الانتصار والوهم

اتجهت صوب المكتب البيضاوي في وقت متأخر من صبيحة يوم الثالث من شهر تشرين الثاني، نوفمبر، سنة 2004. كنت أتوقع أن أشهد الرئيس وهو يتلقى مكالمة من خصمه في الانتخابات، السيناتور جون كيري، يعترف فيها بخسارته. كانت ليلة طويلة. حتى بوش الذي ينام باكراً في العادة، بقي مستيقظاً حتى الخامسة صباحاً – وهو الوقت الذي يستيقظ فيه عادة – وكان يخطط أن ينام لمدة ساعتين. غادرت البيت الأبيض نحو الساعة الخامسة والنصف، وعدت إليه بعد عدة ساعات.

كان اليوم السابق قد أعاد إلى ذاكرتي بعضاً مما حدث يوم انتخابات سنة 2000، ما عدا أن (الدراما) هذه المرة حدثت في ولاية أوهايو وليس في ولاية فلوريدا. ففي وقت متأخر من بعد ظهر ذلك اليوم، وقبل أن تغلق مراكز الاقتراع أبوابها في البلاد كلها، كان المزاج معكراً. أدلى الرئيس والسيدة بوش بصوتيهما في كروفورد، ثم توقفا في ولاية أوهايو قبل أن تقلهما طائرة الرئاسة مع ابنتيهما – ومن كان يرافقهم من كبار المستشارين – إلى واشنطن. وقبل أن نصعد إلى حافلات الموظفين التي كانت ستقلنا إلى البيت الأبيض، سمع دان بارتليت من كارل روف الذي أبلغه ماثيو دود، كبير المشرفين على استطلاعات الرأي لدى الرئيس أن استطلاعات رأي الناخبين الذي أدلوا بأصواتهم تحمل في طياتها أنباء مزعجة للرئيس. هذا التشخيص الذي لا يبشر بخير جعلنا، نحن العاملين في النسق الأعلى من عالم بوش، نشعر بالقلق.

بدا مزاجنا يتغير مع حلول المساء. عندما بدأت النتائج من ولايات مثل جنوب كارولينا وفيرجينيا بالوصول، كان واضحاً أن استطلاعات رأي الناخبين الذين أدلوا بأصواتهم لا تستند إلى أي أساس. كانت النتائج متقاربة جداً ولكنها كانت أميل لصالحنا. ساد نوع من التفاؤل الحذر في الجو. تنقلت بين مكتبي في الجناح الغربي وبين قاعة روزفلت

الملاصقة، التي كانت قد هيئت من أجل الحفلة التي سيقيمها كبار الموظفين للاحتفال بالانتصار. كانت زوجتي جيل، وأنا - كنا قد تزوجنا في شهر تشرين الثاني، نوفمبر، المنصرم - نستمتع بصحبة الرئيس السابق جورج، إتش، دبليو بوش لعدة دقائق، عندما دخل ليلقي التحية على المستشارين المجتمعين. كانت جيل التي لم تلتقِ قبل ذلك بالرئيس سعيدة جداً بالتحدث إلى رجل الدولة العجوز، الودود واللطيف. كان الرئيس الحالي يتابع الأخبار من مسكنه الخاص في البيت الأبيض مع عائلته المباشرة والكبيرة - أبويه وأنسبائه، من الأزواج والزوجات - بالإضافة إلى جمع من أصدقائه القدامى.

توجهت فيما بعد إلى غرفة الطعام العائلية القديمة الموجودة أسفل المسكن الخاص مباشرة، والتي كان كارل روف قد رتبها بحيث تصبح جاهزة للاستخدام كغرفة حرب لليلة الانتخابية. كانت متوضعة بشكل مناسب بحيث لا يفصل بينها وبين الرئيس سوى الدرج فيما لو قرر الرئيس أن يعرف ما يجري شخصياً. وقد قام بذلك عدة مرات في تلك الأمسية في الوقت الذي كان على اتصال دائم مع كارل روف بالهاتف. كانت هناك عدة طاولات في أحد جوانب الغرفة وعليها بضع أجهزة كومبيوتر بحيث يمكن لبعض الموظفين ومنهم كارل، مراقبة نتائج الانتخابات في كل ولاية. في الجانب الآخر، كانت هناك شاشة تلفزيون كبيرة ومسطحة، مثبتة على إحدى الشبكات التي تغطي الأخبار السياسية.

كانت الخطة تقتضي بإفساح المجال لعدد محدود من كبار مساعدي الرئيس السياسيين - روف وكبار مساعديه، إسرائيل هيرناندیز وسوزان رالستون، وحفنة من المساعدين الآخرين. ولكن عندما هبط الليل، واستمر السباق الانتخابي متقارباً جداً، فقد وصل بعض كبار موظفي البيت الأبيض كي يطلعوا على آخر مستجدات وجهة هذا السباق. وكنت واحداً من هؤلاء.

بحلول منتصف الليل، بدأت بعض الشبكات تعلن أن فلوريدا قد صوتت لصالح بوش. امتلأت غرفة الطعام العائلية القديمة بأصوات التهاني والابتهاج. وبالرغم من أن روف المهتم بالأرقام شعر بأننا فزنا في ولاية أوهايو أيضاً، إلا أن أياً من محطات التلفزيون لم تشر إلى احتمال مثل هذا الفوز بعد. كان آندي كارد قد بدأ بإجراء اتصالات جس نبض

خفيفـة مع معسكر كيري محـاولاً بكياسة، تشجيعهم على النظر في فكـرة إجراء المكالمة التـي يتجنب كلا المعسكرين إجراءها، وهي الاعـتراف بالخسارة. كان يجري الاستعداد لإقامـة حفلـة الانتصار في قاعة الاحتفالات في مبنى رونالد ريغـان في أسفل الشارع. أما في البيـت الأبيض، فقد كنا تواقـين جميعاً إلى اللحظـة التي سيكـون باستطاعتنا فيها الاحتفال، ومشاهدة الرئيس وهو يلقي خطاب الانتصار.

لكـن الليلة كانت مـا تزال تتحرك بتثاقـل. حلت الساعـات الأولى، وكانت محطات التلفزيـون الوطنيـة - ربما كانت على جانب كبير من الحـذر بعد أن أساءت إلى نفسها جـداً في انتخابات سنـة 2000 - ما تزال مترددة في إعلان النتائج في ولاية أوهايو ذات حجم الصوت الانتخابي الهائل.

وبينمـا كان الوقـت يخطو باتجاه الساعـة الرابعة صباحاً، شعرنـا أن كتلة الأصوات المحسوبـة لنا والبالغة نحو 150000 صوت انتخابي سوف تمنحنا الفوز في ولاية أوهايو، ومن ثم، ستمنحنا الفوز في الانتخابات. إلا أن الشبكات كانت ما تزال مترددة في إعلان النتائـج، وكان كيري وبعض أركان حملته الانتخابية ما يزالون يأملون في أن تعدل نتائج انتخابات المناطق في ولاية أوهايو النتائج. أما في البيت الأبيض، فلم يكن هناك سوى قلة مـن المستشارين تريد من بوش إعـلان الفوز من دون انتظار مكالمة الاعتراف بالخسارة من كيري. كانوا يأملون أن تؤدي هذه الخطوة إلى تثبيط عزيمة الديمقراطيين لاستدعاء محامين، وتكرار صورة ما حدث سنة 2000. لكن آخرين حثوا الرئيس بوش على الانتظار، وهـذا ما كانت عليه الأمـور عندما قرر الرئيس أن ينهي تلك الليلـة متوجهاً إلى مسكنه الخاص في الساعة الخامسة صباحاً.

تسربـت إلينا شائعات بشكل سري عبر مايك ماكوري من حملة كيري، أنه إذا منحنا كيري وقتاً كافياً للتفكير، فإنه سيجري اتصاله بالرئيس. قام بذلك بالفعل في وقت لاحق من ذلك الصباح.

بعـد وصـولي إلى البيت الأبيض في ذلك الصباح، وذلـك بعد أن أخـذت قسطاً من الراحـة لمدة ساعتين، قصدت المكتـب البيضاوي فوراً لمقابلة الرئيس. قلت له: «تهانينا يا سيدي. إنه انتصار رائع».

رد الرئيس: «شكراً يا سكوت، لقد قمتَ بعمل رائع، عمل رائع بالفعل».

بعد ذلك بفترة وجيزة، كان كل من روف، وكارن هيوز، ودان بارتليت، ومايك غيرسون، كبير كتاب خطابات الرئيس، وأنا مع الرئيس في المكتب البيضاوي. كنا نتوقع اتصالاً من كيري في أي لحظة. وكان دون رمسفيلد الذي كانت الابتسامة على وجهه تصل ما بين أذنيه، قد أطل برأسه قليلاً لتهنئة الرئيس.

بعد الساعة الحادية عشرة بدقيقتين، أطل مساعد بوش آشلي إيستس وخاطب الرئيس قائلاً: « سيدي الرئيس، السيناتور كيري على الهاتف». قفل الرئيس عائداً إلى مكتبه ليجلس ويأخذ المكالمة. كان بإمكاننا سماع المحادثة فقط من جانب بوش: «أعتقد أنك كنت خصماً مثيراً للإعجاب. لقد خضتَ حملة قاسية. آمل أن تكون فخوراً بالجهد الذي بذلته. لا بد أنك كذلك».

عندما وضع بوش السماعة بعد ثلاث أو أربع دقائق، قال وصوته يتهدج قليلاً: «هذا لطف كبير منه». ثم بدأت الدموع تنهمر من عينيه. كانت لحظة عاطفية مؤثرة. لقد حجز بوش لنفسه مكاناً في التاريخ عبر فوزه بولاية ثانية. بدأ بمعانقتنا فرداً فرداً. وبدأت دموعنا تنهمر بدورها. كانت تلك المعانقات حميمية ونابعة من الأعماق. بعد عدة دقائق، وصل آندي كارد وانضم إلى مهرجان العناق مع كل من جو هاغن، وبليك غوتسمان، وآشلي. نزل بوش بعدها إلى القاعة حيث يوجد مكتب نائب الرئيس، حيث هنأ الاثنان بعضهما بعضاً. اتصلت السيدة بوش بعد دقائق من مغادرته، وبعد مدة وجيزة ذهب بوش إلى مسكنه لرؤيتها وتحضير نفسه قبل خطاب الانتصار الذي كان سيلقيه عصر ذلك اليوم.

أذكر أنني كنت أركن سيارتي تحت مبنى ريغان في مرآب السيارات من أجل الاحتفال عصر ذلك اليوم. كانت حافلات الموظفين ملآى بكبار الموظفين الذين كانت الفرحة تغمرهم. كانت تلك مناسبة لنا كي نستمتع بلحظات من الفرح الذي حرمنا منه منذ أربع سنوات. في الداخل، كان المبنى يغص بالمؤيدين والموظفين الذين ملئوا المكان بالهتافات.

كانت كلمة بوش مختصرة. شكر فيها مؤيديه والموظفين – مشيراً إلى بعضهم تحديداً بعبارات مثل «المهندس» كارل روف – ومادا يده إلى أولئك الذين صوتوا لخصمه. تحدث

عن العدد الذي لم يسبق له مثيل من الذين أدلوا بأصواتهم، وعن الانتصار التاريخي. ثم تناول موضوع جدول الأعمال التي سيشكل برنامج مدة رئاسته الثانية. قال: «لأننا بذلنا جهوداً جبارة، نحن ندخل الآن موسم الأمل». تعهد بالبدء في عملية التطوير الاقتصادي، وبإصلاح النظام الضريبي، ودعم الأمن الاجتماعي، والاستمرار في تحسين أوضاع المدارس الحكومية. كما أعاد التأكيد على مساعدة «الديمقراطيات الوليدة في العراق وأفغانستان»، والاستمرار في الحرب ضد الإرهاب. كانت الكلمة في محلها تماماً وتتناسب مع الروح الاحتفالية، كانت كلمة مفعمة بالأمل ومليئة بالتفاؤل بشأن الإنجازات العظيمة التي كان يتطلع إلى تحقيقها في مرحلة ولايته الثانية.

أقام دان صبيحة اليوم الثاني احتفالاً لفريق الاتصالات الذي يرأسه في قاعة روزفلت. قام الرئيس بزيارة مفاجئة لكي يشكر الجميع على ما بذلوه من جهد. عندما انتهى من كلمته، نادى عليّ بأعلى صوته: «أين سكوت؟ هل هو موجود هنا؟»

أشار بعضهم باتجاهي. تابع بوش: «أود أن أعبر عن شكري الخاص لسكوت. لقد قام سكوت بعمل رائع. لم تتسبب في إثارة أي خبر»، وتابع بهذه الروح المرحة: «أود أن أشكرك لأنك لم تصرح – بشيء».

أثار هذا القول الأخير الضحك الذي يستحقه. لكنه كان يعكس مشاعر بوش المتمثلة في عدم رغبته في أن يقوم سكرتيره الصحفي بإثارة الجدل من دون سبب، وخصوصاً في خضم الحملة الانتخابية. لقد تفوه بكلام مشابه في الحفل الذي أقيم تكريماً لآري فليشر عند رحيله، قائلاً إن فليشر قام بعمل عظيم كونه لم يقل أي شيء على الإطلاق.

عقد بوش في ضحى ذلك اليوم اجتماعاً للحكومة. قال في بداية الاجتماع: «أتوقع أن تحاك شائعات وتوقعات حول تغييرات في المناصب الحكومية في مدة حكمنا الثانية. حسنٌ، يمكن أن تحدث بعض التغييرات، ولكن لم يتسن لي الوقت بعد، للتفكير في هذا الموضوع». تحدث بعد ذلك عن أهداف المرحلة الثانية من الولاية. تحدث عن مزايا الوصفات الطبية في الرعاية الصحية – التي ستوضع موضع التنفيذ قريباً – وكذلك عن الحاجة إلى أن تصبح مدخرات المتقاعدين المقترحة «واقعية وحقيقية». على الصعيد

الداخلـي، ساعد موضوع التعليم بوش على الفـوز بالانتخابات وذلك عبر تحييد قضية يعتبرهـا الديمقراطيـون حكـراً عليهم، لا بل نجـح في تحويلها إلى نقطة قـوة بالنسبة للجمهوريين لأننا، كما قال، نملك «فلسفة ورؤية».

سـوف تشـكل المرحلة الثانية فرصـة لتعزيز موقع بوش في التاريـخ. إن إعادة صياغة أفـكار الديمقراطيين حول التعليم، والرعاية الصحيـة، والضمان الاجتماعي ضمن أطر المحافظـين ساهمت في نزع احتكار الديمقراطيين لهذه القضايا الجوهرية لسنين عديدة قادمة، أو، على الأقل، هذا ما اعتقده كل من بوش وكارل روف. ومع وجود أغلبية جمهورية في مجلسـي النواب والشيـوخ، فقد اعتقد الرجلان - على الأخـص، روف - أن بالإمكان إطلاق عصر جديد من سيطرة للحزب الجمهوري ليكون جزءاً من إرثهما الشخصي.

أبلـغ الرئيس الحكومة بأنـه سوف يدفع بقانـون إصلاح تحديـد المسؤولية الطبية، وسـوف يصر علـى الانضباط المالي، ويسعـى إلى استصدار قانـون للطاقة، ثم يلتفت بعدها إلى ثلاث من أكبر المبادرات الداخلية: الضمان الاجتماعي، والإصلاح الضريبي، وإصلاح الموازنة.

ولكـن الأهم من ذلك كلـه، أن الرئيس أكد أن مقاربته للحكم سوف تكون على المنوال نفسه الذي كانت عليه إبان مرحلة ولايته الأولى. سوف تستمر الحملة الدائمة. أوضح بوش أن الكيفيـة التـي سنسوق فيها القضايا الكبرى هي على قـدر كبير من الأهمية في الوقت الذي نتحرك إلى الأمام. لقد استطعنا تسويق أهدافنا عند الشعب الأمريكي» وكان بهذا يشـير إلى الانتصار الذي تحقـق في الانتخابات. أكد للحكومة أنه عندما كان الأمر يتعلق بتسويق أهم القضايا في جدول أعماله «فإننا سنندفع لإتمامه». يجب أن يتم التركيز على تغيير منحى الرأي العام، ومن ثم الضغط على الكونغرس لدعم موقف الإدارة.

كانـت تلك فلسفته في ممارسة الحكم، وكان يشاطره إياها كارل روف، الذي التفت الآن للحديـث عنه. فلقد امتدح بوش روف واصفاً إياه «بالمهندس اللماح» الذي يستنبط «الإستراتيجيـة الكاملـة»، من أجل إعـادة الانتخاب؛ وقد أدار «حملـة إعادة انتخاب لا تشوبهـا شائبة. لقـد كانت الحملة تدار بشكل لا يصدق. كانـت تقف إلى جانبنا حشود

جماهيريـة كبيرة ورائعة». ومن البديهي القـول إن هذا المهندس يكرس اهتمامه لإدارة حملة «تسويق القضايا الكبيرة» للشعب الأمريكي. لقد بدا وكأن يوم الانتخاب ما هو إلا محطة في رحلة لا تنتهي.

بعدها أدلى تشيني ببعض التعليقات. فقد تذكر أنه سبق له أن ناقش خططاً مع الرئيس في هذا الوقت نفسه منذ أربع سنوات. قال نائب الرئيس: «أتذكرُ الحديث الذي دار بيننا بعـد إعـادة عد الأصـوات في انتخابات سنة 2000، وكان الحديث حـول ما إذا كان علينا التخفيـف من نشاطنا؛ وأذكر أنك قلت إن ذلك ليس خياراً، وقد آتى أُكُلَه. التفويض هذه المـرة هو في غايـة الوضـوح». (لم يلحظ أحد في هـذا الحديث عن مبـدأ «التفويض» أن الانتصـار بهذا الفـارق الضئيل، هو من أضيـق الهوامش في أي حملـة إعادة انتخاب في تاريخ الرئاسة.) قال تشيني إن السنوات الأربع المقبلة تمثل «فرصة لإتمام المهمة».

تحـول الحديـث بعد ذلك باتجاه موضـوع العراق. قال كولن باول وزيـر الخارجية إن «العراق يحتل الأولوية في أذهاننا. إننا نعمل للتحضير للانتخابات سنة 2005، ولا بد من وضع حد للخروق الأمنية، وعلى الأخص في المثلث السني».

تدخـل الرئيـس قائـلاً: «كانـت لحظـة حاسمـة في تاريـخ أفغانستـان عندما تمت الانتخابـات. يجب أن تؤمنوا بأن الناس تواقـون إلى الحرية، حتى في المناطق المحرومة. العراق سوف يغير العالم». لكنه اعترف بأن النتائج المتوخاة التي يتم التوصل إليها يمكن أن تكون «قبيحة».

تحـدث وزير الدفاع، دونالد رمسفيلـد عن أسر العسكريين، وعـن آبائهم وأمهاتهم. قال: «لم أتوقف عن التفكير بهم. لا بد أن نتيجة الانتخابات هي مصدر اطمئنان [لهم]». تحدث كيـف أن الشعب العراقي كان «يقاوم التخويف» وسـط «الإجراءات القاسية» التي كان عليهـم مواجهتها – وكان بذلك يلمح بشكل غير مباشر مثل كولن باول، إلى الفوضى والقتـل في مناطـق مثل الفلوجة حيـث كان المخربون والإرهابيـون يتسببون في الكثير من الخـراب. كما أكد على أهميـة الانتخابات العراقية القادمة في شهر كانون الثاني، يناير، لانتخاب الجمعية الوطنية الانتقالية.

وافق الرئيس على ذلك قائلاً: «الانتخابات مهمة من دون شك. إنها ترغم الناس على الاختيار. فإما أن يفوتهم القطار، أو يستقلون قطار» الديمقراطية. أضاف بوش أنه تحدث إلى قادة عراقيين أمثال الياور وعلاوي حول نتائج انتخابات الرئاسة الأمريكية، وقالا إنهما «مرتاحان» لفوز بوش.

قال رمسفيلد: «كانوا سيتحولون إلى خبز محمّص لو خسرت».

أجاب بوش: «خبز فرنسي محمّص». انفجر جميع من كان بالقاعة بعدها بالضحك.

أوضح كل من خطاب الانتصار والاجتماع الحكومي بما لا يدع مجالاً للشك طريقة تفكير بوش لكل من كان يعرفه. كان مصمماً حتى النهاية على التقدم إلى الأمام بعقلية هجومية لتسويق أفكاره الكبيرة، وحفظ مكان له في التاريخ. اعتقدَ أن الانتخابات كانت بمنزلة تصديق على سياساته في المرحلة الرئاسية الأولى، بما في ذلك قراره بغزو العراق، ومنحته تفويضاً لتنفيذ خطط وأهداف مرحلة الولاية الثانية التي حدد معالمها. الآن أصبح عليه القيام بأفضل ما يجيد فعله – شن الحملات. قرر القيام بجولات في طول البلاد وعرضها، مسخراً الآلة الإعلامية لصالحه، والفوز بمعركة كسب الرأي العام مركزاً على كل صوت انتخابي، وكل استطلاع للرأي، وكل ولاية على حدة. لا بد أن يضطر الكونغرس قريباً جداً للإذعان والجلوس إلى طاولة المفاوضات بشروط بوش. ولن تكون هناك منذ البداية أي حاجة إلى الثنائية الحزبية التي تعتمد مبدأ الأخذ والعطاء والحلول الوسط. هذه الأساليب التي شكلت العامل الحاسم في نجاح بوش في ولاية تكساس، لا مكان لها في اللعبة السياسية المعتمدة في واشنطن.

كانت تلك الروحية نفسها واضحة في المؤتمر الصحفي الأول الذي عقده بوش بعد إعادة انتخابه. فقد أعرب عن نيته في الإنفاق من «رأسماله السياسي» في سبيل تنفيذ أهدافه المبهمة بدءاً بموضوع التدقيق بالضمان الاجتماعي؛ وعندما حوصر في مسألة التعاون مع الديمقراطيين، قال بوش إنه راغب في القيام بذلك. حتى أنه ألمح بشكل عابر إلى مسألة توحيد الأمة، وهو الموضوع الذي كان أحد موضوعات جدول أهدافه منذ أربع سنين. قال بوش: «أحد مظاهر خيبة الأمل الناجمة عن التواجد في واشنطن يكمن في

المـرارة والعقلية التقسيمية اللتـين تنتجهما هذه المدينة، لا ألوم هنا هذا الحزب أو ذاك. هـذا هو واقع الحال في واشنطـن دي سي، وأحياناً تتفاقم هـذه المشكلة بسببكم [يقصد وسائل الإعلام]، لأن في هذا تسلية عظيمة لكم. هي كذلك في الواقع - إنها مسلية بالنسبة للبعض. وهذا ما يجعل ممارسة الحكم عملية صعبة أحياناً. ولكن، وبغض النظر عن كل ذلك فإن التزاميبالتعاون مع الديمقراطيين «ما يزال موجوداً».

لكـن بوش أوضـح أيضاً أنه إذا كان عليـه الدفع بشيء يحتاج فيـه إلى دعم قليل من الديمقراطيين كما فعـل بالنسبة إلى مشروع قانون الوصفات الطبية تحت مظلة الرعاية الصحيـة، فإنه سيقوم بذلك. قال: «النتائج تهمنا بالتأكيـد»، وكان من الواضح بالنسبة لبوش، أن «النتائـج» تعنـي تنفيذ جدول أهدافـه بالطريقة التي تراءت لـه (ولروف) - وليسـت نسخة مبللة لطختها تدخلات من الديمقراطيين. بالعـودة إلى الوراء، يتضح أن الالتزام بالترفع عن الصراعات الحزبية كان مسألة تعوزها الحماسة.

كان العـراق مـا يـزال بطبيعة الحال، يشـكل الأولوية المطلقة. فقد أكـد الرئيس في مؤتمـره الصحفـي علـى الرأي نفسـه الذي تحدث بشأنـه مع فريقـه في مجلس الأمن القومي في لقاءات خاصة: إنها فقط مسألة وقت قبل أن تتحول الديمقراطية في العراق إلى واقـع. سيندفـع العراقيون إلى الأمـام، وسيتحملون مسؤولياتهـم في مجال الأمن، ومـن ثم، فـإن البحث في سحب القـوات الأمريكية يمكن أن يصبـح مسألة جدية. وقد عـدت الانتخابات القادمة في شهر كانون الثاني، يناير، لحظة تاريخية في هذه العملية. قـال بوش: «سنتعاون مع حكومة عـلاوي للوصول إلى مبتغانا الذي يتمثل في الانتخابات في سبيـل تحقيق الاستقرار، وسوف نستمر في تدريـب القوات العراقية. وسيكون بإمرة قادتنا العسكريين كل ما يحتاجونه لإكمال مهمتهم».

كان كل ذلـك جزءاً من رؤية بوش المثالية حول العـراق كمنصة إطلاق لتغيير الشرق الأوسـط. وقـد دافع عن هـذه الرؤيـة في مؤتمره الصحفـي. قال: «هنـاك أسلوب يتبعه بعضهـم في العالم، مفاده أن محاولة الدفع بمجتمعات باتجاه الحرية هي مضيعة للوقت.

لقد سمعت بهذه الانتقادات...إنني أعارض بشدة أولئك الذين لا يرون الحكمة في محاولة دعم حرية المجتمعات في شتى أرجاء العالم. إذا كان يهمنا الدفاع عن بلدنا على المدى الطويل، فإن أفضل الطرائق للقيام بذلك يكمن في نشر الحرية والديمقراطية».

كانت أجندة مرحلة الولاية الثانية مبهمة تماماً: إصلاح بعضٍ من أكبر البرامج المحلية وأكثرها إثارة للجدل، خلق الظروف الملائمة للإبقاء على أغلبية جمهورية دائمة، وفي الوقت نفسه، تحقيق النصر في حرب خارجية كبيرة، والبدء نتيجة لذلك بتغيير منطقة ملتهبة إلى واحة من السلام والديمقراطية. لكن بوش وبعضٌ من أركان فريقه كانوا واثقين من ذلك. كانت ثقتنا كبيرة بأسلوب قيادة بوش المتمثل بمبدأ كف اليد، وهو ما وضع الكثير من التفاصيل الحاسمة بين أيدي أعضاء تابعيه في فريقه الموثوق. وبعكس كل من الرئيسين جونسون وكارتر اللذين غرقا في كومة من الطحالب نتيجة ولعهم بالتفاصيل الدقيقة، فإن بوش كان يلتزم بالصورة الشاملة، ومن ثم كان يحقق النجاح على عدة جبهات في وقت واحد.

كان كبار مستشاري بوش للشؤون الإستراتيجية والسياسية يعتقدون أنهم استوعبوا حقيقة الكيفية التي تمكنهم من الانتصار على طريقة واشنطن. ولكن هل كانت ثقتهم بالنفس حول «التفويض» الممنوح لنا مبنياً على أساس من الوهم؟ وهل تعرض أحدهم لواحد من الأخطار الدائمة التي يواجهها القائمون على الحملات الناجحة - مؤمنين بعالمهم الذي يدورون فيه، ومتجاهلين كم كان الدعم الشعبي لبوش مهزوزاً؟

السنتان القادمتان ستروبان الحكاية. أما الآن، فإن بوش العاقد العزم والممتلئ بالحماس، وفريقه في البيت الأبيض الذي استعاد زخمه ونشاطه يندفعون إلى الأمام يقودهم الإحساس بالانتصار.

غادر بوش برفقة السيدة بوش إلى كامب ديفيد في عصر يوم الخميس ذاك، لتصفية ذهنه والاسترخاء بعد حملة شرسة. ولكنه كان سيبدأ نقاشاً جدياً مع آندي كارد حول حكومته وكذلك حول طاقم البيت الأبيض. كان بعض أعضاء الحكومة يخططون لترك

مناصبهم، وكان آندي يشجع بعض أعضاء الحكومة الآخرين على النظر في المكاسب التي سيجنونها جراء تقديم استقالاتهم بدلاً من الانتظار إلى حين إقالتهم.

التغيير بين الحين والآخر مسألة مهمة جداً للمحافظة على حيوية البيت الأبيض. يحتاج الرئيس إلى كم كبير من النصائح الحكيمة والصادقة وواضحة الرؤية. يمكن للدم الجديد أن يساعد في الإبقاء على هذه المصادر حيوية ونَشِطة. أكثر من ذلك، إن العمل عضواً في فريق كبار الموظفين في البيت الأبيض ينهك صاحب العلاقة ويستهلكه، وهو بمنزلة طريق تحرق صاحبها. وكلما طال عليك الوقت كموظف داخل جو الخداع في البيت الأبيض، أصبح من الصعب عليك أكثر رؤية الأشياء بوضوح وموضوعية. ولذا تصبح معرفة متى وكيف يمكن إجراء التغيير، مسألة مهمة جداً للرئيس ورئيس أركانه.

كان آندي كارد يستوعب ذلك كله. فقد حذّر العديد منا، نحن العاملين المستقبليين في الجناح الغربي منذ البداية أن أحد أهم الأشياء التي علينا معرفتها هي «متى يتعين علينا تقديم الاستقالة». انطلقَ كارد الآن إلى كامب ديفيد لتشجيع الرئيس كي يبدأ بهذه العملية بتعيين رئيس أركان جديد للبيت الأبيض.

بقيت على اتصال وثيق مع آندي خلال مدة التخطيط. كانت طاحونة الإشاعات في واشنطن قد بدأت في تخميناتها حول التغييرات القادمة، ولم أشأ أن أكون غير مدرك لما قد يحدث فجأة في أي لقاء صحفي. في الوقت نفسه، فهمت أن هذه العملية ستكون في غاية السرية. كان الرئيس يؤمن بوجوب إبقاء الخطط سرية إلى أن يتم وضع اللمسات الأخيرة عليها. كان آندي والرئيس يطلبان مشورة بعض المستشارين الموثوقين؛ وكان مكتب مستشار البيت الأبيض يدقق بهدوء في كل الوجوه الجديدة المحتمل تعيينها في ملاك البيت الأبيض. كان يتم عادة تداول بعض الأسماء المحددة ضمن الدائرة الداخلية، وعندها كنت اكتشف ما يجري، هذا إذا لم يكن الرئيس نفسه يعلمني بذلك. كان الهدف من ذلك الاستفادة القصوى من التغييرات في الوقت نفسه تقريباً، وتشكيل حكومة متكاملة لمرحلة الولاية الثانية قبل نهاية السنة.

يـوم الجمعة في كامب ديفيد، شـارك الرئيس أيضاً في اجتمـاع لمجلس الأمن القومي حول العراق. وقد قدم كل من الجنرال أبي زيد، رئيس القيادة المركزية، والجنرال كيسي، رئيـس مسرح العمليات في العراق، وجون نيغروبونتي، السفير الأمريكي في العراق رؤاهم عبر بث الدائرة المغلقة التلفزيوني.

كان الوضـع في مدينـة الفلوجة الموضـوع الرئيس في النقاش، وهـو موضوع أثار القلق منـذ نهايـة المعـارك الأولى قبل ثلاثة أشهـر. كان المخربـون ما يزالـون يسيطرون على المدينـة، كما أن بوش وفريقه قرروا أن هؤلاء المخربين يجـب أن تتم هزيمتهم مرة وإلى الأبـد، وقبل حلول موعد الانتخابات. في الأسبوع الأول مـن شهر تشرين الثاني، نوفمبر، حـذر رئيس الوزراء، المالكي علنـاً المتسللين أن النافذة المفتوحة لهـم للوصول إلى تسوية سلميـة مع الحكومة تغلق بسرعـة؛ وأن القوات الأمريكية بدأت بمهاجمة المدينة بالغارات الجويـة ونـيران المدافع. وسوف تنضم القـوات العراقية قريباً إلى القـوات الأمريكية في حرب دموية ومكثفة داخل المدينة نفسها، تحت مسمى:عملية غضب الشبح. وسوف تطبق القـوات الأمريكية والعراقية علـى المدينة بشكل كامل خلال بضعة أيام، تنتقل بعدها إلى عمليات تمشيط بحلول منتصف الشهر.

ولكـن خلال تلك المدة نفسها، وقعت عمليات عنف أكبر في مناطق أخرى من العراق، مثـل مدينـة الموصل. كان ذلـك بداية لما أطلق عليـه بعضهم معركة عصـر «التغلب على الخلد» ضد المتسللين: اهزمهم في مكان ما، وسيخرجون عليك من مكان آخر.

صبـاح يوم الاثنين الثاني، وبعد عودة الرئيس من كامب ديفيد، قام بزيارة نادرة إلى حيـث اجتمـاع كبار الموظفـين في قاعة روزفلت. قـال: « اتخذت قراراً واحـداً، طلبت من آنـدي البقاء في منصبه رئيسـاً لأركان البيت الأبيض. صفق كبـار الموظفين، وعبر آندي عن عميق امتنانه للشرف الذي حظي به.

كانـت الرسالة هنا توحي بالاستمرارية وليس التغيير. إنني معجب جداً بآندي كارد. كنـت دائمـاً أعده واحداً من أشرف العاملين في إدارة بوش. وكان آندي نفسه يعتقد أنه مـن الأفضل بالنسبة إلى البيت الأبيض تغيير رئيـس أركانه. وكما أخبرني آندي بنفسه

في وقت لاحق، فقد حث الرئيس على إجراء مثل هذا التغيير، لكن هذا الاقتراح جوبه بالرفض القاطع. بالعودة إلى الوراء، فقد كان ذلك ينبئ بما سوف يأتي لاحقاً فيما يتعلق بعملية التغيير في الولاية الثانية.

اعتاد الناس أن يسألوني عن سبب الولاء الشديد الذي يظهره أركان بوش له. وكنت أجيب: «نحن موالون له، ولكنه هو موالٍ لنا أيضاً. إنه طريق باتجاهين. إن ولاءنا المتبادل يغذي بعضه بعضاً.

يحب بوش الإبقاء على ما اعتاد عليه، ولا يحب التغيير، خصوصاً فيما يتعلق بأعضاء أساسيين في فريقه كان قد منحهم ثقته واعتمد عليهم. أدى ذلك إلى نشوء رباط قوي بين بوش وبين عدد منا، أي من كبار الموظفين، وخصوصاً أشخاص تكساسيين وآخرين مثل آندي. كانت جاذبيته الشخصية وطبيعته التلقائية عاملاً مهماً في خلق بيئة عمل ممتعة حيث يرغب الناس في أن يبقوا حيث هم - ربما أكثر مما يجب.

كانت قدرة جورج دبليو بوش على استلهام مثل هذا الولاء مظهراً من مظاهر القوة الكبيرة لديه «بصفته شخصاً». أما بالنسبة إلى بوش «الرئيس»، فقد كانت مصدر ضعف كامن أيضاً. إن الإزعاج الذي يسببه التغيير لبوش يجعل من الصعب عليه التراجع عن العلاقات القوية التي ينشئها، واتخاذ قرارات واضحة حول ما هو أفضل.

بالعودة إلى الماضي، يبدو من الواضح أن فرصة قد ضاعت مع بداية مرحلة الولاية الثانية المتمثلة في تعيين أشخاص لهم رؤى وآفاق جديدة في فريق البيت الأبيض، وفي فريق مجلس الأمن القومي. بدلاً من ذلك كله، شاهدنا تعزيزاً لمواقع الفريق ذي اللون الواحد داخل الحكومة، وداخل البيت الأبيض، خصوصاً بين كبار المستشارين في مجلس الأمن القومي. كانت هناك تغييرات؛ لكن تلك التغييرات زادت من وتيرة التجانس في الرأي بينهم وبين أذن الرئيس.

خرج وزير الخارجية كولن باول. أبلغني كارد فيما بعد أن باول وبوش اتفقا سابقاً على أن يبقى في منصب وزير الخارجية حتى انتهاء الولاية الأولى. ومع حلول موعد المرحلة

الانتقاليـة، أعاد باول النظـر في موقفه وكان على استعداد لإعادة النظر في مسألة البقاء مـدةً أطول ضمن شروط محـددة. ولكن بعد الاجتماع معه لمناقشتها، اتفق الرجلان على أن موعد الفراق قد حان.

كنـت أشعر بالأسـف لرحيل باول، مثـل الكثيرين من الأمريكيين. كنـت أعرف فيه الشخص الذي يقدم النصيحة الصادقة والمباشرة المبنية على سنوات طويلة من الخبرة كقائد عسكري، وكخبير في السياسة الخارجية. أكثر من ذلك، لم يتردد أبداً في التعبير عن مواقفه بوضوح.

لكـن الرئيس شعر على ما يبـدو أنه لم يعد بحاجة إلى صوت باول المعتدل كي يضعه في مواجهة آراء صقور مثل تشيني ورمسفيلد. وقد تم إبداله بكوندي رايس الموثوقة جداً، والمتكيفـة جداً، والتي كانت أكثر من مستعدة لتغيير موقعهـا كمستشار للأمن القومي. كانت الضغوط والتحديات الهائلة تحيط بهذا المنصب من كل حدب وصوب - بالإضافة إلى اللغـط المتزايـد بشأن العراق منذ مدة قريبة. كان بإمـكاني التنبؤ بأنها كانت تتوق إلى بدايـة جديدة في موقـع آخر، وكان منصب وزير الخارجية هـو الموقع الوحيد الذي كانت تطمح إلى احتلاله، باعتقادي.

شعـر بعض أعضاء فريق بوش، بمن فيهم الرئيس نفسه، بأن رايس قادرة على ضبط بيروقراطيـي وزارة الخارجيـة (بمن في ذلك الكادر المـوالي للديمقراطيين) ضمن خط سياسـة الإدارة، سـواء كانوا متفقين معها أم لا؛ بعكس كولن بـاول الذي أوكل الكثير من المسائـل إلى الدبلوماسيين المحترفـين المختصين بالشؤون الخارجيـة. هذا الموقف الذي اتخـذه، بالإضافة إلى آرائه السياسية المستقلة، جعل بعض العاملين في مؤسسة السياسة الخارجيـة يعتبرون أنه لم يكن يتصرف ضمن روحيـة الفريق. باعتقادي، كان مثالاً على مـا تدل عليه عبارة روحيـة الفريق من معنى. لقد كان يبحث عن مصالح الشخص الذي يعمـل في خدمتـه، وكذلك في خدمة بـلاده التي أقسم علـى الولاء لها بكثـير من العناية والحكمة. كان من الخطأ عدم إيجاد طريقة تؤدي إلى الاحتفاظ به.

مـن الصعـب على المرء القول إنه يعـرف كوندي رايس. إنها تلعب وهـي تضع أوراقها قريباً جداً من صدرها، وتحتفظ عادة بآرائها لتناقشها مع بوش في جلسات خاصة. بمرور الوقـت، أدهشتني بحصافتها التي حمت سمعتهـا بواسطتها. وبغض النظر عن الأخطاء التي يمكن أن ترتكب، فإنها كانت قادرة دوماً على إبقاء يديها نظيفتين، حتى عندما تكون المشكلات ضمـن نطاق سلطتها المباشرة بما في ذلك موضوع أسلحة الدمار الشامل التي كانت الدافع وراء الحرب في العراق، وقرار غزو العراق، والكلمات الست عشرة في خطاب الرئيـس حـول حال الاتحـاد، وإستراتيجية التخطيط والتنفيذ لمرحلـة ما بعد الحرب في العراق. يقول بعضهم إنه كان عليها أن تدفع بقوة أكبر باتجاه لفت الانتباه إلى التهديدات وتوجـه أنظار البيت الأبيض نحـو موضوع الإرهاب قبل وقوع هجمـات الحادي عشر من أيلول. بالرغم من أنها كانت كبير مستشاري الرئيس لشؤون السياسة الخارجية، ومنسق فريـق الأمـن القومي، فقد جيّرتْ المسؤولية عن هذه الأمور لتقع بدرجة كبيرة، على عاتق أشخاص مثل مدير وكالـة المخابرات المركزية السابق جورج تينيـت، وبول بريمر، ودون رمسفيلـد. وكمـا يحب الرئيس بوش أن يقول، إذا كان ما يهـم هو النتائج، فإن التاريخ لا بـد أن يحكم عليها بقسوة باعتبارهـا الشخص المسؤول عن الإشراف على رسم عدد من السياسات الحاسمة – والسيئة الطالع، أقله على المدى القريب – لإدارة بوش.

ولكن مهما كان نوع الأخطاء التي ارتكبتها في مجال إدارة السياسة، فقد كانت بارعة في مجـال العلاقات العامـة. كانت تعرف كيف تتأقلم مع الإزعاجـات المحتملة، وتتجاهل المشكلات الكامنة، وتخرج من هذا كله وهي تشع كنجمة. لا يستطيع سوى القلة من الناس التصرف تحت الأضواء بطريقة أفضل؛ بالطريقة التي تعلق فيها على الأخطاء بفصاحة تلقائية وسلسة، ونزوعها نحو التقليل من شأنها.

لكنهـا كانت في اللقاءات الخاصة تمتدح حدس بوش وتعززه، بدلاً من انتقاده أو طرح تساؤلات بشأنه. وبمقدار ما أستطيع قوله استناداً إلى الاجتماعات والمناقشات الداخلية، فقد انتظمت كوندي بشكل لا عودة عنه، في مسار تفكير بوش. وإذا لم تكن هي من يحدد

له مسار تفكيره، فإنها بالتأكيد تعرف كيف تقرأه، وكيف تترجم أفكاره ومشاعره وميوله، وتحولها إلى سياسات ملموسة.

بـدأت رايـس بداية قويـة في منصبها الجديد كوزيـرة للخارجية. ونظـراً لأن المكون الأساسـي لهذا المنصب يرتكز إلى الدبلوماسية العامة، ولدوره القوي في مجال العلاقات العامـة، فقـد كان مناسباً جـداً لشخصيتها الديناميـة وقد أحاطت نفسهـا بفريق عمل موثوق ومجرب خدم مصالحها بشكل جيد.

تمـت ترقية ستيف هادلي من موقعـه كنائب للمستشار، إلى منصـب مستشار الأمن القومي. لعب هادلي البعيد عن الأضواء، ذو الشخصية المستوية، والذكي الذي لا يكل ولا يتعـب، في معرض اهتمامه بالتفاصيل، دور ميسر الأمور بالنسبة لطريقة تفكير الرئيس، ومجلـس الأمـن القومي التابع له. كان يعمـل لساعات طـوال، وكان في المحصلة يعلم أنه يعمـل في خدمة شخص واحـد، ألا وهو الرئيس بوش. لكنـه كان يتأكد من أن كل مسؤول تابـع له لا بـد وأن يطلع على التفاصيل كي يكون باستطاعتـه تقديم كل ما يلزم في مجال السياسة. ولذلك فإنه لم يتم عزل أحد أو تهميشه.

ذكـرت بعض التقاريـر فيما بعد أن آنـدي كارد أجرى عملية إصـلاح كاملة في فريق مجلـس الأمن القومي، بما في ذلك استقالة دون رمسفيلد. كان هذا يبدو معقولاً بالنسبة إلي بالرغـم مـن أن آندي لا يمكن أن يقـر بذلك علناً. (شعر بـأن دوره وسيطاً نزيهاً في العمليـة السياسيـة يتطلب منه هذا من النوع الحصافة). علـى أي حال، قرر الرئيس أن علـى رمسفيلد أن يبقـى. رمسفيلد ذو شخصية قوية، لا يـكل ولا يمل من السعي لتحقيق أهدافه، وهو مقتنع تمام الاقتناع بأن سنوات خدمته الطويلة في المجال الحكومي وخبرته المشتركة تجعله ملماً بدقائق الأمور بطريقة فريدة، وتؤهله لكي يكون الحكَم الوحيد على قراراتـه. كان بوش يبدي دوماً اهتماماً عظيماً به - أكثر مما ينبغي، أحياناً. وكان إبقاؤه في منصبه مع بداية مرحلة الولاية الثانية يعني أن وزارة الدفاع ستدار على المنوال نفسه؛ وهو المنوال الوحيد الذي يجيده رمسفيلد - أي على طريقته.

تم إجـراء تغيـيرات في بعض المواقع الرئيسـة في الإدارة. فقد تولى آل غونزاليز الذي شغـل منصـب مستشار البيـت الأبيض خـلال مـدة الرئاسـة الأولى، وزارة العدل. كان غونزاليز من أشد الموالين للرئيس، وهو صديق ومساعد له منذ أيام تكساس، وكان يخدم مصالـح الرئيـس بكثير من الولاء إلى أن وصل هذا الأخير إلى البيت الأبيض. لقد تعامل مع منصب مستشار البيت الأبيض كما لو كان المحامي الشخصي للرئيس؛ فقد كان يعمل بجـد لإيجاد الحجج القانونية والحماية اللازمة لأكثر الخيارات السياسية التي تقوم بها الإدارة إثـارة للجـدل. وتضمنـت هذه بشكل خاص بعض المواقع التي كان يـؤدي تشيني ومستشـاره ديفيـد أدينغتون من الداخل دور البطل فيها – علـى سبيل المثال، قرار توسيع الصلاحيـات التي تسمح باستخدام أساليـب الاستجواب التي كان من المحرم استعمالها ضد المحتجزين في قضايا الإرهاب؛ وكان موقف الحكومة يتمثل في أن «المقاتلين الأعداء» الذيـن يعتقلون في الحرب ضد الإرهاب، لا تنطبق عليهـم الحماية التي تفرضها اتفاقية جنيف،وكذلك قرار استخدام المحاكم العسكرية بدلاً من المحاكم المدنية لمحاكمة المشتبه فيهم في قضايا الإرهاب.

من السهل تبيان الأسباب التي حدت بالرئيس، الوفي لأصدقائه القدامى والموثوقين، والكاره للتغيير، كي يرغب في أن يكون غونزاليز في منصب المدعي العام. (تمت تسمية هارييـت ميرز، مـن تكساس أيضاً للحلـول محل غونزاليز في منصـب مستشار البيت الأبيض.) لكـن عملية الانتقال هـذه أثبتت أنها ستثير مشكلات أكـثر مما توقعها أي منهمـا. لا بأس في أن يكـون مستشار البيت الأبيض موالياً بشـكل شخصي للرئيس؛ لكـن هـذا يصبح أكثر مدعاة للتسـاؤل عندما يكون هذا الشخص في منصب المدعي العام الذي تتطلب وظيفته أن يكون محايداً في تطبيق قانون البلاد، حتى لو ألحق ذلك الضرر بالرئيس والحزب الذي ينتمي إليه.

تمـت الموافقـة على تعيـين غونزاليز في هذا المنصـب بأغلبية ضئيلـة استندت بشكل رئيـس إلى الـولاء الحزبي، حيث صـوت ستون عضو مجلس شيـوخ (ستة منهم فقط من الديمقراطيين) لصالحه بينما عارضه ستة وثلاثون عضواً (جميعهم من الديمقراطيين)؛

ويعـود ذلك إلى المواقع السابقة المثـيرة للجدل، والتي شغلها غونزاليز. كان هذا التقارب في نتيجة التصويت ينبئ بما تعنيه عبارة المشكلات المرتبطة بتولي المنصب. ونظراً لعدم قدرته على الفصل بين موقعه وبين علاقته الوثيقة مع الرئيس، ولعجزه عن إظهار نوع من الاستقلاليـة، ولارتباطه الشديد بالمكائد السياسيـة الدائرة في البيت الأبيض، فقد وجد آل نفسه متورطاً في العديد من القضايا المثيرة للجدل والضارة، بما في ذلك تلك القضية التـي ما تـزال تثير الكثير مـن الشبهات، والتي تتمحـور حول ما إذا قامـت وزارة العدل بعزل عشرات من المدعين العامين الأمريكيين بسبب انتماءاتهم الحزبية. وبعد أن وقع في خضـمٍ من سياط الاتهامات والاتهامات المضادة، انتهى الأمر بآل إلى تقديم استقالته في شهـر آب، أغسطس، سنة 2007، وكان هناك ما يشبـه الإجماع في أن مدة توليه منصب المدعي العام لم تكن لها فاعلية تذكر.

كانـت هنـاك وزارة أخـرى في الحكومة بحاجة إلى قيـادة جديدة مـع مستهل مرحلة الولايـة الثانيـة، وهـي وزارة الأمن الداخلـي، التي ما تـزال في مراحل طفولتهـا الأولى، والتـي ما تزال تحاول تحديد هويتهـا ومهامها. فالتكديس الهائل والفوضوي للعشرات من الـوكالات المستقلة التـي تم تجميعها تحت مسمى واحد، وتركز على هدف جديد (التهديد المـادي «للوطن» الأمريكي) يتعارض أحياناً مع التفويضات القديمة، أدى إلى عرقلة العمل في وزارة الأمـن الداخلـي بسبب الصراعات البيروقراطية الداخليـة، والتحديات المتعلقة بالتنسيق بين مختلف مكوناتها، والمعقدة بشكل لا يصدق، ومعنويات العاملين المنخفضة.

كانـت الـوزارة بحاجة إلى قائـد ذي مهارات عظيمـة، وإمكانية إداريـة، ورؤية قوية استشرافية، بالإضافة إلى نزاهة غير مشكوك بها. ولكن لسوء الحظ، فقد كان الشخص الأول الـذي اختـاره الرئيـس بوش لهذا المنصـب لا يمتلك أياً من تلـك الصفات – وهو برنـارد كيريك، أمـين شرطة نيويورك السابـق الذي وصّى به بحـرارة، عمدة نيويورك السابق، رودولف جولياني.

كانـت هناك صداقـة وثيقة تربط جوليـاني بكيريك، وهي صلة شبيهـة بالصلة التي تربـط بين بوش وبين بعض الموالين التكساسيين لـه. بالعودة إلى الماضي، يمكن القول إن

علاقتهما كانت وثيقة جداً. فقد قادت هذه الصداقة الوثيقة جولياني إلى إغفال حقيقة أن هناك العديد من الأفعال غير الأخلاقية التي لطخت إلى درجة كبيرة سجل كيريك في مجال الخدمة العامة. وقد أودت بعض هفوات كيريك به إلى بعض المشكلات القانونية. فقد اعترف سنة 2006 بأنه مذنب في اثنين من الانتهاكات الأخلاقية، وتم تغريمه على كل منهما؛ وفي سنة 2007، وجهت إليه تهم في ست عشرة قضية تتعلق بالتزوير بواسطة الهاتف، والتزوير بواسطة البريد، والتآمر، والكذب على مصلحة جباية الضرائب. (أعلن أنه غير مذنب، لكنه لم يحاكم بعد بشأن القضايا اللاحقة).

بعد أن رشح بوش كيريك لمنصب وزير الأمن الداخلي في شهر كانون الأول، ديسمبر، سنة 2004، بدأت عمليات الكشف عن سلوكه تعلن على الملأ. كانت هذه واحدة من الحلقات التي قدمت فيها الصحافة مثالاً عن الدور الحاسم الذي يمكن لها أن تلعبه في الكشف عن الارتكابات التي يقوم بها المسؤولون الحكوميون. بصراحة، قامت وسائل الإعلام بعمل أفضل مما قامت به إدارة بوش فيما يتعلق بسبر المعلومات حول كيريك. ولم يكن أمام كيريك بعدها سوى تقديم استقالته.

في شهر كانون الثاني، يناير، أقدم بوش على ترشيح مايكل تشيرتوف لمنصب وزير الأمن الداخلي؛ وهو مدع عام فيدرالي سابق، وقاضٍ في محكمة الاستئناف الأمريكية، ومسؤول في وزارة العدل. كان تشيرتوف معروفاً في البيت الأبيض حتى أنه عمل (بالتعاون مع فيت دينه) على صياغة مشروع قانون الوطنية، وهو قانون استند إلى مبادرة روجت لها الإدارة كثيراً، وتحول فيما بعد إلى قانون مثير جداً للجدل. لكن إمكاناته في إدارة بيروقراطية حكومية معقدة وواسعة كانت مثار شك؛ وقد لاحقته الاتهامات بالتقصير خلال إعصار كاترينا بشكل لم يكن أحد يتوقعه.

كان توسيع دور كارل روف الرسمي داخل البيت الأبيض أحد أهم التغييرات ذات المغزى، والتي حصلت في المرحلة الانتقالية سنة 2004. سبق وأن تمت تسمية روف للحلول محل هاريت ميرز (مستشار البيت الأبيض الجديد) نائباً لرئيس الأركان. أدى هذا الموقع الجديد إلى أن يصبح الملف المناط بروف أكبر حجماً عبر إعطائه دوراً في تنسيق السياسة الداخلية، والسياسة الاقتصادية، والأمن القومي (بشكل جزئي، بحيث لا

يتضمن ذلك سياسة الحرب)، والأمن الداخلي - وهو دور ذو مدى واسع بالنسبة لشخص يعـده العديد من الناس حتى في واشنطن، ناشطـاً سياسياً بعيد النظر. وكما وصف بيتر بيكر الأمر في صحيفة واشنطن بوست بشيء من روح الدعابة، حيث كتب ما يلي: «في مدة رئاسـة بوش الأولى، كان المراقبون من خارج البيت الأبيض غالباً ما يشكّون في أن كارل روف هو وراء كل ما يحدث. الآن، أصبح الأمر رسمياً».

عـدت هذه الخطوة بصورة جزئيـة، مكافأة لكارل روف الذي قـام بدور «المهندس»، والشخص الذي قاد حملة إعادة انتخاب ناجحة لرئيس كان يعاني من حرب صعبة بشكل متزايد في العراق. لكنها أيضاً أعادت التأكيد، وزادت من الشعور بأن إدارة بوش ملتزمة إلى أبعد مدى بالحملة الدائمة كإجراء عملياتي طبيعي في واشنطن. فممارسة الحكم لن تكـون فرعـاً من فروع شن الحملات وحسب، بل سيكون سيـد من يقود الحملات مسؤولاً عـن الحكم بشكل علنـي - وهو بذلك ينزع برقـع الإدعاء بأن هناك فرقـاً بين المبدأين. كان روف في أعماقه متقلقلاً من الناحية السياسية، لكنه كان بالأساس، العقل السياسي المدبر. لقد كان من المستحيل التفريق بين الاثنين.

وكان يكمن وراء كل هذا وذاك، الساحر، نائب الرئيس تشيني. ما كان باستطاعة أحد أن يدير هذه الأوركسترا بأفضل مما كان يحدث خلف الستائر، وذلك في الوقت الذي كان العرض الكبير يجري هناك فوق خشبة المسرح. كان ينسـل بهدوء إلى قلب الاجتماعات الداخليـة، ومنهـا، وكان تأثيره وتلويحـه بصولجانه غالبـاً غير مرئيـين بالنسبة للعالم الخارجي؛ نادراً ما كان تشيني يكشف كل أوراقه، كما أنه لم يكشف أبداً عن الكيفية التي يقـوم فيهـا بأفعاله. ومع ذلـك، كان تشيني يحصل دائماً على كل مـا يريد، وذلك في كل مجال من مجالات السياسة التي كان يضع يده فيها، من غزو العراق، إلى توسيع السلطة الرئاسيـة، إلى معاملـة المحتجزيـن، إلى استعمـال أجهزة المراقبة ضـد المشتبه بهم في قضايـا إرهابيـة. كان ينظر إلى العالم باعتباره بؤرة من الشر؛ وهكذا فلا بد من محاربة الشر بكل الوسائل الضرورية – بما في ذلك الوسائل التي تعد مؤلمة.

في المحصلـة، كان شـكل الإدارة، والتوجه الذي أخذتـه في مرحلة الولاية الثانية قد بـدأ يتضـح. لم تضخ الإدارة دمـاً جديداً وأفكاراً جديدة من مصـادر في الخارج، لا بل

قامـت بإسكات بعض الأصوات التي كانت تمثل رؤى مستقلة (مثل الوزير باول) وقامت بترقية أناس معروفين بولائهم لبوش، والذين تضمن بشكل عملي عدم تحديهم للتفكير التقليـدي السائد في البيت الأبيض (مثل كونـدي رايس وآل غونزاليز). كما عززت من سيطـرة عقليـة الحملة الدائمة داخـل الإدارة عبر إعطـاء كارل روف موقعاً أقوى على الطاولـة، ضامنة بذلك أن لا تكون الاعتبـارات السياسية بعيدة أبداً عن مركز النقاش حول السياسة في مدة الولاية الثانية.

ونظـراً لأننـي كنت محاصراً في قلب معمعة البيت الأبيض، فقد كنت أدافع علناً عن كل قـرارات بوش. تلك كانت مهمتي. لكننـي لم أقدر مضموناتها بشـكل كامل بالنسبة إلى مستقبـل الإدارة، كما لم أتبين حجم المشـكلات الخطرة التي ستساعد في خلقها في السنوات الأربع القادمة.

كانـت الإدارة الأمريكية التـي استعادت نشاطها واستجمعـت شجاعتها بعد فوزها في الانتخابـات مرة أخـرى، مستعدة للبدء في شن حملة هجومية جديـدة تهدف إلى إحداث تغيـير تحولي. كان الموضوع هـذه المرة هو الضمان الاجتماعي. ولم تكن لترضينا أي خطة للإصلاح يمكن أن تعرض علينا كيفما اتفق. رسم الرئيس خطاً على الرمال: يجب أن تكون حسابات التقاعد الشخصية أو الخاصة جزءاً من الحل. كانت الفكرة تقتضي بتوفير خيار للنـاس كي يقوموا باستثمـار جزء صغير- 2 إلى 4 بالمائة من أمـوال ضمانهم الاجتماعي في «بورصـات» آمنـة، وصناديق نقد تبادلية، ووسائط تقاعديـة أخرى مناسبة. كانت تلك مبـادرة جمهوريـة صرفة. وكانت تناسب الموضوع الـذي كان الرئيس غالباً ما يردده حول «مجتمـع المُلّكيـة»؛ كانت تشجع الناس على أخـذ المبادرة، وتحمل المسؤوليـة بكل ما يتعلق بشؤون مستقبلهم؛ وكانت مسؤولة مادياً عن إيجاد حلول للديون الكبيرة وغير الممولة.

كانـت مبـادرة محلية شجاعـة، أمِلَ بوش أن تكـون علامة فارقـة في رئاسته. وكان يخطـط لتمريرها في حملة هائلة يشنها أمـلاً في ممارسة ضغط شعبي على الكونغرس لتحقيق ذلك.

عقـد اجتماع لمديـري الضمـان الاجتماعي في البيـت الأبيض في السادس عشر من شهـر كانون الأول، ديسمبر، لمناقشة الإستراتيجية التي ستتبع لتمرير خطة الرئيس حول الضمان الاجتماعي في السنة القادمة. ركزت المناقشة على معركتين لا بد لنا من شنهما. ستهـدف المعركـة الأولى إلى «توعيـة» الناس بشـأن المشكلات الماليـة والاقتصادية التي تواجه الضمان الاجتماعي، والحاجة إلى حلها. كان الهدف من هذا الجهد خلق جو أزمة سوف يساعدنا في الحصول على الدعم الشعبي الضروري لنفرض على الحزبين الموافقة علـى خطتنا الإصلاحية في الكونغرس. أما المعركـة الثانية فستكون حول اقتراح الحلول، والتأكد من أن حسابات التقاعد الشخصية ستكون جزءاً منها.

كان ديفيـد هوبـس، ضابـط الارتبـاط مع السلطـة التشريعيـة التابـع لبوش يفهم الكونغرس، وما يستجيب لـه أعضاؤه: «يشـكل كل من تحديد المشكلـة، ووضع أعضاء الكونغرس أمام مسؤولياتهم سبعين بالمائة من الحل. نحن بحاجة إلى الضغط الشعبي علـى الكونغرس». الخطة المقترحة لخلـق هذا الضغط تضمنت القيـام بجولات واسعة في الولايـات والمناطق التـي يقطن فيها أعضاء الكونغرس. كان بوش سيستعمل الآمال الناجمـة عن إعادة انتخابه لضمان تأييـد أعضاء الكونغرس من ذوي الآراء المتأرجحة كرافعة يمارس بواسطتها الضغط المطلوب.

اتفقنـا على عقد اجتماع دوري للمديرين مـرة في الأسبوع، وأن يجتمع نوابنا أكثر من ذلك. انتهت حملة إعادة الانتخاب، وسيعود النشاط إلى الحملة الهادفة إلى إعادة تشكيل التفكـير الأمريكي؛ وهـو ما يتطلب تقديم حركات معقدة ودائمـة التجدد لكبار اللاعبين للتأكـد من أن رسالة قويـة ومتوازنة، وذات صدى طيب سوف تصل إلى الناس من طريق كل القنوات المتوافرة بين أيدينا.

ولكن بالعودة إلى الكيفية التي بذلنا عبرها جهداً هائلاً في سبيل هذه الحملة في بداية سنـة 2004، فإنني أتساءل فيما إذا كنا حينهـا نستثمر مواردنا بحكمة. كنا نبذل جهوداً طائلة لتسويق خطتنا التي كانت مجرد مخطط؛ في الوقت الذي كنا نقتر في تركيزنا على عناصـر أخرى في العملية التي ربما كانت على الأقـل، توازيها في الأهمية. لم نكن نكرس

مـا يكفي من الوقت لمناقشة أعضاء الكونغرس بغية الاتفاق على تفاصيل خطتنا من أجل الإصـلاح. لم نكن نقوم إلا بالحـد الأدنى من التواصل مـع الديمقراطيين للخروج بذلك النـوع مـن الإجماع الذي سيحدث تغيـيراً جذرياً في القانون سيجعل مـن الأسهل تمريره والموافقـة عليه. بـدلاً من ذلك، كنا نقفـز كالضفادع متجاوزين خطـوات مهمة، كما كنا نقفـز مباشرة إلى خشبة المسرح بالطريقة الأكـثر فطرية - والمتمثلة بالجهد المبذول من أجل العلاقات العامة.

كان كل ذلك يذكّر بشـكل غامض بالطريقة المتسرعة التي أغلقنا فيها دائرة النقاش حـول ضـرورة الحرب في العـراق، واخترنا بدلاً مـن ذلك أن نحولهـا إلى حملة متسرعة تسويقيـة هائلـة. استخدمنـا مقاربة مشابهـة في إعدادنـا لحملة الضمـان الاجتماعي. فبالنسبة إلى العراق، كان هناك تهديد تجب مواجهته، أما بالنسبة إلى موضوع الضمان الاجتماعي، فهناك أزمة لا بد من حلها.

حتى عندما كنا على وشك الانتهاء من إعداد خططنا، كانت تلاحقنا الأخبار السيئة حول موضوع آخر حملاتنا الكبيرة - ألا وهي الحرب في العراق. فعلى امتداد آخر شهرين مـن سنة 2004، استمر المخربون والإرهابيون في العراق في إحلال الخراب والدمار. كان العنـف المستمر يشكل مصدر قلق خصوصاً وأن أول انتخابات مقررة كانت على الأبواب. وبحلـول أوائل شهر كانون الأول، ديسمبر، قرر الرئيس زيادة مستوى عدد القوات إلى ما يقـرب مـن 150000 من الجنود لتقديم عنصر أمان إضافي من أجل الانتخابات في شهر كانون الثاني، يناير، ولإبقاء الضغط على المخربين.

في الوقـت نفسه تقريباً، وبالتحديد في السابع من شهر كانون الأول، ديسمبر، تحدثت صحيفـة نيويـورك تايمز عن ورود برقية سريـة من رئيس المخابـرات المركزية في بغداد مفادهـا أنه من غير المحتمـل أننا سننجح في السيطرة على الوضع في المدى المنظور. كما قـدّم مسؤول آخر في وكالة المخابرات المركزية، والذي كان قد زار العراق قبل ذلك بزمن قصـيرة، تقويماً مشابهـاً. لاحظت المقالة أيضـاً أن بوش رفض إحصـاءً سبق أن قدمته المخابـرات الوطنيـة وكان يتضمن أن «المستقبل في العراق يلفـه الغموض حتى نهاية سنة 2005»، واصفاً إياه بأحد الاحتمالات من ضمن احتمالات أخرى كثيرة.

كان ذلـك يشكل إيحاء أولياً بأن الفـوز في انتخابات الولاية الثانية لن يؤدي إلى تغيير منهجية هذه الإدارة بشـأن الأخبار السيئة. فالرئيس الذي مُنِحَ تفويضاً انتخابياً، والذي لـن يكون عليـه خوض انتخابات أخـرى في المستقبـل، كان عليه أن يستغـل بالتأكيد هذه الظروف ويحاول الوصول إلى مقاربة على شكل إجماع لتحسين سياسة كانت نتائجها أقل من مُرضية. إلا أن بوش وفريقه قررا أن لا يقوما بذلك.

يـوم الأربعاء الواقع في الثامن من شهر كانـون الأول، ديسمبر، وفي الوقت الذي وصل فيـه مستوى العنـف في العراق إلى مستويـات مرتفعة، وتدنت فيه الحـال الأمنية، التقى الوزيـر رمسفيلد بالجنود الذين كانوا سيرسلـون إلى العراق في القاعدة التي سينطلقون منهـا في الكويت. أُمطر بوابل من الأسئلة المحددة التي تتعلق بضعف التجهيزات، وتمديد زمـن بقاء الجنود في العراق. سأل توماس ويلسون المتخصص في جيش الحرس الوطني مـن ولاية تينيسي عن النقص في أعداد عربات النقل القتالية. سأل ويلسون: «لماذا علينا نحن الجنود أن نتولى بأنفسنا البحث عن قطع معدنية من الخردة، وزجاج بالستي رديء الصنعة كي نركبه على واجهات عرباتنا؟»

كان رد رمسفيلد علامة فارقة في حياته المهنية – ولم تكن علامة إيجابية. أجابه وزير الدفـاع: «كما تعلم، فأنت تخوض الحرب بالجيش الـذي لديك». أضاف فيما بعد قائلاً: «إنـه ليـس الجيش الذي تريـده، أو ترغب في أن يكـون تحت إمرتك فيما بعـد. لو فكرتَ بالموضوع ملياً، لعلمتَ أنه قد يكون كل سلاح العالم بإمرتك وأنت تقود دبابة، ولكن يمكن أن يتم تفجير تلك الدبابة».

ثـارت ثائرة أعضاء الكونغرس مـن الديمقراطيين احتجاجاً علـى تعليقات رمسفيلد التـي وصفوها «بالمثيرة للصدمـة» و«القاسية القلب». عندما سئلتُ عن هذه التعليقات في الحوارات الصحفية صباح اليوم الثاني، دافعت عن رمسفيلد شخصياً، ولكنني كنت أكثر حصافـة مـن أن أحاول الدفاع عن تعليقاته. قلت: «الوزيـر رمسفيلد له طريقته الخاصة التي يتحدث عبرها بشكل مباشر مع قواتنا بشكل مؤلم، ولا بد أنكم لحظتم ذلك بالأمس. فالوزيـر مهتم جـداً بجنودنا ومجنداتنا، وهـو مصمم على القيام بما يلـزم لمعالجة كل

مـا يمكن أن يثير قلقهـم». لكن تعليقاته ساعدت في تثبيت الروايـة الإعلامية التي يقتنع الجميـع بها: إن هـذه الإدارة ترسل قوات مسلحـة سيئة التجهيز لمحاربـة التهديد الذي يمثلـه الإرهابيون والمخربون؛ والأسوأ من ذلـك، إن مسؤولي الإدارة هم إما غير مدركين للمشكلات الحاصلة، أو غير قادرين على حلها، أو غير مهتمين بهذا البتة.

حتـى الإيحـاءات الحسنة النية التي أريدَ لها أن تخلـق انطباعات إيجابية عن الجهد المبـذول من أجل الحرب في تلك الفترة ارتـدّتْ سلباً على مطلقيها. ففي الرابع عشر من شهـر كانون الأول، ديسمبر، قلّد الرئيـس وسام الحرية وهو أعلى وسام مدني في البلاد، إلى من يتمتعون بميزات استثنائية، واستقامة وإنجازات، لثلاثة من القادة الذين وصفهم «بالرجـال الذيـن لعبوا دوراً محورياً في أحداث عظيمـة، والذين كانت لجهودهم الفضل في جعـل بلادنا أكـثر أمناً وأكثر تقدماً في مجـال الحرية الإنسانيـة». كان هؤلاء الثلاثة لاعبين أساسيين في تنفيذ السياسة بشأن العراق وهم جورج تينيت، المدير السابق لوكالة المخابرات المركزية، والقائد السابق للقيـادة المركزية، الجنرال المتقاعد تومي فرانكس، والرئيس السابق لسلطة الائتلاف المؤقت في العراق، بول بريمر.

في مقابـل الأخبار المحبطة الواردة من العـراق، بالإضافة إلى زيادة عدد أفراد جوقة المنتقديـن الذين يوجهون سهـام نقدهم إلى هؤلاء الثلاثة مجتمعـين - خصوصاً تينيت الـذي نقل عنه وصفه لإخفاق المخابرات حول أسلحة الدمار الشامل في العراق «بالمغطس المتهـور»، وبريمر الذي ارتكـب جملة من الخطوات الكبرى غـير المحسوبة خلال الأشهر الأولى مـن الاحتلال - أثارت هذه الاحتفالية الكثير مـن النقد. ألم تكن هذه هي الإدارة التـي يفترض بأنهـا تبني أمجادهـا على أساس النتائج، والتـي تؤمن بمبـدأ المسؤولية والمحاسبـة؟ إذا كان الأمر كذلـك، لمَ الاستعجال في منح أوسمة إلى أشخاص أسهموا في التخطيط لحرب يبدو أنها كانت حرباً خرقاء وغير مفهومة؟

كانـت ردة الفعل المتصاعدة ضد الحرب تهدد بمحاصرة الرئيس نفسه. ففي مؤتمره الصحفـي الذي يعقـده نهاية السنـة، والذي عقـده في العشرين من شهر كانـون الأول، ديسمبر، أرغم بوش على الدفاع عن وزير دفاعه، قام بذلك بصفة شخصية:

«أعرف طيبة قلب الوزير رمسفيلد. أعرف كم هو مهتم بالقوات المسلحة. يذهب دائماً برفقة زوجته إلى مركز والتر ريد الصحي في مدينة بيثيسدا لتقديم العزاء والمواساة. لقد رأيت الألم - أو سمعت الألم في صوته، ورأيت الألم في عينيه عندما كنا نتحدث عن الخطر في العراق، وحقيقة أن شبابنا وشاباتنا هناك معرضون للأخطار. وهو - هو شخص طيب وأخلاقي. إنه شخص عطوف. أحياناً تكون طريقته قاسية؛ ولكن توجد تحت هذه الطريقة القاسية، شخصية طيبة تهتم جداً بالقوات المسلحة، وبالآلام التي تتسبب بها الحرب».

هذا هو التقويم النمطي الذي يقدمه بوش الذي غالباً ما يتحدث عن الأشخاص الذين يحبهم من خلال شخصياتهم الداخلية - رجل طيب، رجل أخلاقي - بدلاً من الحديث عن سلوكهم الحقيقي وأفعالهم. لم يحاول بوش الدفاع عن الكلمات التي اختار أن يتلفظ بها رمسفيلد، والتي تلفظ بها بشكل سيئ في الكويت، أو الأخطاء التي ارتكبها في الأحكام التي أطلقها حول الطريقة التي تدار بها الحرب. بدلاً من ذلك، قام بكل بساطة بإجراء تقويم للصفات الخبيئة في شخصية الرجل، كما لو أن هذه الصفات تتفوق على أفعاله، وتمحو عواقبها السلبية. يمكن للمرء أن يطلق على هذه المقاربة منظوراً مسيحياً تطهيرياً حيث يغسل التسامح كل نتائج الأعمال القذرة. لكن ذلك لم يكن يتفق مع الصورة التي رسمتها لنفسها إدارة يفترض أنها تركز على مبدأ المحاسبة، كما أنها لم تكن مقنعة للأمريكيين الذين تزداد تعاستهم وهم يتساءلون فيما إذا كان أبناؤهم يموتون، ومقتنياتهم تتبخر في سبيل لا شيء.

حاول الرئيس في المؤتمر نفسه أيضاً، وذلك بعد أن قمنا بمناقشة خطة خلف الكواليس، إعطاء الانطباع الذي يمكن أن تطلق عليه وسائل الإعلام «تقويماً صريحاً ويقظاً» للحال في العراق. تحدث عن التفجيرات الانتحارية، واعترف بوجود صعوبات. كما أعطى الانطباع أن قواتنا المسلحة تحتاج إلى البقاء في العراق لمدة أخرى قادمة، من دون إعطاء مهلة زمنية لذلك.

أظهر استطلاع نشرته صحيفة واشنطن بوست في اليوم الثاني أن 56 بالمائة من الأمريكيين يعتقدون الآن بأن الحرب كانت «خطأ»، و «لا تستحق أن تخاض». وارتأت

الغالبيــة أن على رمسفيلد أن يستقيــل. حاولت الإدارة ممارسة عملية الدوران الإيجابي، والإنــكار، والآن - متأخــرة - الصراحــة والواقعيــة، ولكــن مــن دون جــدوى. فقد كانت الأخبــار الفاضحة الواردة من الميدان تبث رسالتها الخاصة بنفسها، وهي رسالة وجدها الأمريكيون مثيرة للقلق بشكل متزايد.

أمــا بالنسبة لنا نحن القابعين داخل البيــت الأبيض، فإننا لم نلحظ إشارات التحذير التــي تتضاعف يومــاً إثر آخر، في الوقت الــذي كانت السنة الجديدة علــى الأبواب. كان معــدل التأييــد للرئيس متأرجحاً ولا يتجــاوز الحد الأدنى للغالبيــة إلا بفارق بسيط، وهو الأدنــى من بــين كل الاستطلاعات التي كانــت تجري قبل أي خطاب حــول حال الاتحاد. مــن الواضح أن الرئيس لم يحــظَ بأي دعم إضافي في مرحلة ما بعــد الانتخابات. فالنية الحسنــة التي أظهرها قبــل أربع سنوات عندما بدأ مرحلة رئاسته الأولى ضاعت ولم يبق لهــا أثــر، ولم يكن بوش يفعل إلا أقل القليل كي يبعثها مــن جديد. كان يبدو مصمماً على خوضــ اللعبة على طريقة واشنطــن، من دون أن يقدّر مدى إسهــام سياساته وأفعاله في تسميم الجو العام.

لم يوفــر الانتصــار في الانتخابات بفارق ضئيــل أي تفويض حقيقــي لبوش. فلم تكن هناك سوى انقسامات وتكتلات، ولم يكن أحد بيننا ممن هم في الدائرة الداخلية الضيقة للرئيــس قادراً على تصور مدى جدية المشكلة في ذلــك الوقت. بدلاً من ذلك، فقد تعلقنا بأهداب فكرة التفويض، رافضين قبول حقيقة أنها لم تكن سوى مجرد وهم.

في تلك الأثناء، كانت الأحوال في العراق مستمرة في التداعي. بالنسبة للرئيس وفريقه لشؤون السياسة الخارجية، فإن الخطة كانت تسير في المسار المرسوم لها، وكانت المصادر مثبتــة في أماكنهــا استعداداً لمواجهــة العاصفة التي تقــترب رويداً، رويــداً. كانت قواتنا مستمــرة في ملاحقة المخربين والإرهابيين من دون هــوادة. وكان دبلوماسيونا مستمرين في دفــع العملية السياسية إلى الأمام. كانت الانتخابــات التي ستجري في العراق في شهر كانــون الثاني، يناير، تشكل أولوية مطلقة، وكانت تعد بمنزلة نقطة تحول يمكن أن تعطي العراقيين الأمل، وتزرع روح اليأس في نفوس المخربين. بعد انتخاب حكومة انتقالية، يجب

أن يتحول الاهتمام باتجاه مشروعات إعادة البناء الصغيرة التي يمكن أن تقدم مساعدة ملموسة وآمالاً للمواطنين في أنحاء البلاد كلها. في الوقت نفسه، كنا سنتابع عملية تدريب القوات العراقية بحيث يكون باستطاعتها تحمل قدر أكبر من المسؤولية عن أمن البلاد. وكانت الصيغة التي كنا نعتمدها في الغالب تقول: في الوقت الذي تنهض القوات العراقية، فإن القوات الأمريكية سيكون بإمكانها أن تجلس.

كان برنامجاً ذا صدى منطقي للنجاح على المدى الطويل في العراق. المشكلة في أن هذا البرنامج لم يتطابق البتة مع الواقع. كانت هناك مشكلات جد خطرة لم يتم بعدُ تحديدها ومن ثم، مواجهتها.

لم يكن عديد القوات الأمريكية داخل العراق كافياً، وقد استهلكت طاقاتها إلى أبعد مدى عبر تكرار عمليات إعادة الانتشار. كانت القوات المسلحة تحمل أعباء هائلة، وكانت تتصرف حيالها بشكل جيد؛ لكن إنهاء العنف، والحفاظ على أمن تلك البلاد الشاسعة كانا يشكلان تحدياً كبيراً ومشكلة حقيقية، إذا أخذنا بعين الاعتبار حجم القوات المسلحة المتواجدة على أرض العراق. كانت الحال الأمنية المتدهورة تعيق بشكل متزايد أعمال إعادة البناء. فقد تباطأت المشروعات بسبب الهجمات التي كانت غالباً ما تُشن، وهو ما منع عن العراقيين الكثير من الخدمات الأساسية. وكان الوقت الذي استهلكته عملية تجهيز القوات العراقية وتدريبها كي تصبح مؤهلة للإمساك بزمام الأمن بمعزل عن المساعدة الأمريكية طويلاً جداً. والأسوأ من كل ذلك، كان هناك الانقسام الطائفي المتصاعد، والضارب في عمق التاريخ، والذي قام بتأجيج أواره المخربون، والميليشيات التي لا تجد من يضبطها، والإرهابيون. كانت القوات الأمريكية تقوم بواجبها على خير ما يرام، لكن لم يكن بإمكانها أن تقوم بأكثر مما قامت به. كانت بحاجة إلى دعم أكبر من واشنطن، لكن واشنطن أصبحت أكثر استقطاباً في الوقت الذي استمر الصراع.

كانت طريقة بوش في إدارة المشكلات في العراق تثبت خيبتها يوماً بعد يوم في تحقيق المهمة الموكولة إليها. كان يتلقى تقارير أولاً بأول، وبانتظام في الوقت الذي حاول تحسين الوضع بواسطة الإقناع الشخصي أو ممارسة الضغط على القادة العراقيين. لكنه كان

معزولاً عن واقع الأحداث على الأرض، ومن ثم، فقد بدأ بالسقوط في فخ الإيمان بحنكته الشخصيــة. أخفق في قضاء ما يكفي من الوقت كي يبحث عن معلومات مستقلة يستقيها مــن طيف واســع من خبراء من خــارج دائرة البيــت الأبيض الذين لديهــم خبرة دقيقة وميدانية حول العراق، و – ربما كان ذلك هو الأهم – الذين لهم آراء مختلفة، بمن فيهم أولئك الذين يختلفون معه في سياساته.

إن إخفــاق بوشــ في فتح أبواب البيت الأبيض لأفكار جديــدة في مرحلة ولايته الثانية، جعله بالفعل يبدأ في دفع الثمن.

obeikandl.com